أعلام اللغة

أحمد فارس الشدياق

الأستاذ محمد حميد بيهم

منذ بداية القرن التاسع عشر برزت في كل من مدينة بيروت ، التي كانت مركزا لولاية تحمل اسمها، ولبنان في عهديه الاقطاعي والمتصرفية الممتازة، برزت نهضة عارمة شملت النواحي الادبية والاجتماعية والسياسية . وكان يرجع مصدرها الى اختلاط هذا الثغر والجبال المشرفة عليه باوروبا وذلك بانتقال بعض رجال الدين المسيحي الى مواصم الغرب ، وبتدفق الارساليات التبشيرية الى هذين البلدين ، وتنافسها في انشاء المدارس والكليات والمطابع ، بالاضافة الى ما تخلل ذلك من قيام الشركات الاجنبية بالمشاريع العمرانية والاقتصادية ، وفي اسفار كان يقوم بها تجار بيروت الى الممالك الاوروبية وغيرها في سبيل التبادل التجاري .

وفي اواخر القرن المذكور كان شعار النهضة اهتماما باللغة العربية وآدابها ، وقد حمل لواءهما ادباء من رجال الدين والدنيا نظموا الشعر وكتبوا المقامات وانشأوا الصحف والمدارس ليس في سوريا فحسب ، وانما في غيرها من البلاد المجاورة ، واوروبا . وعلى قول جاحظ لبنان المعاصر المرحوم مارون عبود احمد فارس الشدياق كان الرجل الاول في هذا البعث الاجتماعي ، وحامل لواء اللغة العربية .

— * —

ولد فارس الشدياق في قرية عشقوت بلبنان سنة 1804 ، ولاحوال سياسية انتقل والده منصور الى قرية الحدث على مقربة من بيروت سنة 1809 فترعرع فيها ، وتعلم في مدرسة عين ورقة . ولما مات والده انكب على المطالعة ، واحترف مهنة نسخ الكتب .

ولما مات اخوه بطرس الذي كان حبيس البطريرك الماروني في دير قنوبين خاف فارس على نفسه فعاف وطنه مغاضبا ، وسافر الى القاهرة ليكون استاذ اللغة العربية عند رجال البعثات الاميركيين . وهناك انكب على دراسة اللغة العربية وعلى الاتصال بالائمة المصريين والعلماء ، فبلغ ابعد اعماقها . ولذلك عهد اليه محمد علي الكبير والي مصر بتحرير جريدة الحكومة : « الوقائع المصرية » .

وفي سنة 1824 ذهب الى مالطة بناء على طلب المرسلين الاميركان ، ولبث في تلك الجزيرة اربع عشرة سنة يعلم في مدرسة هؤلاء ، ويصحح مطبوعات مطبعتهم .

وفي سنة 1848 طلبته وزارة الخارجية الانكليزية من حاكم مالطة ليعاون الدكتور «لي» على ترجمة التوراة ، فلبى طلبها ومكث في لندن عشر سنوات تعرف خلالها باكبر علماء اوروبا وادبائها . وهناك الف كتبه « الواسطة » و«كشف المخبا» و «الفارياق» الذي طبعه في باريس سنة 1855 .

وفي باريس الف واصدر كتبا اخرى ابرزها «سر الليالي» الذي كشف به الغطاء عن عظمة اللغة

العربية . وصادف ان جاء باريس وقتئذ احمد باشا باي تونس ، فمدحه الشدياق بقصيدة كان أولها « زارت سعاد»، ثم بعث بها اليه بعد عودة الباي الى بلاده فاعجب هذا بها ، وارسل يستقدمه الى تونس على سفينة بخارية ليبحر الشدياق عليها هو وعائلته.

وفى تونس غمر الباي الشدياق بنعمه ، وقلده اسمى المناصب، وفضلا عن مديرية المعارف عهد اليه برياسة تحرير جريدة الرائد التونسي . وفى غمرة هذه النعم اعلن فارس الشدياق اسلامه ، واضاف الى اسمه احمدا ، وتكنى بأبي العباس .

وحينئذ ، وقد ذاع صيته فى الشرق والغرب ، استدعاه السلطان عبد المجيد العثماني بواسطة الباي. ولما جاء دار السعادة « اسطامبول » رحب به السلطان ، وعهد اليه بادارة المطبعة السلطانية طوال عدة سنوات . وفى سنة 1861 انشأ الشدياق جريدة الجوائب ، فكانت تنطق بلسان الشرق ، ومرجعا للصحف الاوروبية فى القضايا الشرقية التى كان يطلق عليها « المسالة الشرقية » . وكانت هذه الجريدة تحمل لواء العرب والعربية الامر الذى افضى الى اسكاتها سنة 1884 .

وفى 1886 زار احمد الشدياق القاهرة ، وهو شيخ ، فاكرمه الخيديوي توفيق باشا ، ونوه بخدماته للشرق افضل تنويه ، ولكنه مع ذلك ظل يحن الى العاصمة العثمانية فعاد اليها ، وقضى نحبه فيها سنة 1887 . وقد احتفل بماتمه احسن احتفال ، واشترك فيه ممثل السلطان ، وصدرت ارادة سنية بدفنه فى تربة السلطان محمود ، بينما رثته صحف العالم على اختلاف لغاتها ، ونقل البرق نعيه الى العواصم الاخرى . وقالت عنه جريدة الاجيبشيان غازيت ما يلي : « ضع الكتبة الانجليز سكيث وامرسون وداور دروث ووايكنف وبلويز فى شخصية واحدة فحينئذ يمكنك ان تتصور جيدا عظمة احمد فارس الشدياق . ولو ولد الشدياق فى اوروبا لدفن مع نخبة العظماء ، ولنصبت له التماثيل فى أكثر مدن بلاده . »

ولكن الشدياق (على ما جاء فى دائرة معارف البستاني) كان يريد ان لا يدفن فى غير مسقط راسه ولذلك فان ولده سليما التمس الاذن بأن يدفن فى قرية الحدث عملا بوصية والده . وكان يوم نقل جثمانه الى لبنان من اعظم ايامه، كما كان يوم استقبال جثمانه فى بيروت يوما مشهودا اشترك فيه العلماء وعلى راسهم مفتي البلدة ، والاعيان والادباء ، وكانت الرايات والاعلام تمشي امام الجنازة ، ومشائخ الطرق يمشون وراءها يهللون ويكبرون .

وبعد الصلاة عليه فى الجامع العمري الكبير ، وسماع المراثي من نظم ونثر (على ما ذكرت جريدة لسان الحال فى اليوم التالي نقل جثمانه الى قرية الحدث ، ولكنه لم يدفن فيها ، وانما دفن على مقربة منها فى محلة الحازمية على جانب الطريق بين بيروت ودمشق حيث شيدت الدولة له ضريحا مرموقا على نسق مقامات الباشوات والحكام .

— * —

فى نهاية عام 1936 اجتمع فى بيروت جمهرة من كبار الادباء والصحفيين والاعيان، وقرروا الاحتفال **بيوبيل الشدياق لمناسبة مرور خمسين عاما على** وفاته ، واختاروا لجنة ادارية منهم تتولى اعداد مهرجان كبير لاحياء ذكراه، ولاعادة طبع آثاره . وقد شرفني المجتمعون بانتخابي رئيسا لهذه اللجنة ، ولكن الاسباب التى حالت دون دفن الشدياق فى القرية التى ولد فيها ، حالت هذه المرة ايضا دون قيام هذه اللجنة بما عهد اليها .

ونحن نترك الكلام هنا الى اديب لبنان الكبير مارون عبود . فهو قد ختم كتابه « صقر لبنان » الصادر سنة 1950 بفصل اطلق عليه اسم « صرخة فى واد » : اورد فيه ما اعترض الاحتفال الخمسيني للشدياق من ملابسات وعقبات . وقال : « عندما ارسلنا الصرخة تلو الصرخة لم نحسب انها جميعا ستذهب فى واد . فما اصدرنا بضع مقالات ، فى نهاية عام 1936 نذكر فيها العالم العربي باديب النهضة الحديثة ، وواضع حجر الزاوية فى بنيانها العلامة الاكبر احمد فارس الشدياق حتى اهاب بنا صوت من بيروت : ان انزل العاصمة ، فهبطنا اليها شاكرين للاستاذ محمد جميل بيهم دعوته الى شربنا فيها الشاي والقهوة ، واكلنا من الحلوى اقراصا مختلفة .

كنا اربعين ، ولكن غير الاربعين الخالدين ، فانتخبنا منا اثني عشر رسولا ... حملناهم الدعوة للشدياق ، وارسلناهم كالخراف ... كانت همتنا عظيمة يوم بدانا ، وتلك عادتنا ، نار هشيم ، ثم تنطفيء . فما ذاقت الدعوة حتى انبعثت الهمم ، واتانا من القاهرة نبأ الدكتور فيليب الشدياق (ابن عم المرحوم) يتبرع بمائة جنيه مصري لعمل تمثال

للفقيد ، وتوالت جلسات اللجنة المختارة حتى خطر ببالها أن تقرع باب الحكومة ، فمثلة فيليب شجعتها ... اما كرم الحكومة فكان حاتميا ... واليك ما كتبته جريدة صوت الاحرار الخطيرة على اثر تلك المقابلة تحت هذا العنوان الضخم « الجمهورية اللبنانية تقدر نوابغها » .. « اوفدت لجنة تكريم امام اللغة العربية وحجتها في القرن التاسع عشر المأسوف عليه احمد فارس الشدياق اربعة من اعضائها : السادة محمد جميل بيهم رئيسها ، والشيخ يوسف زكريا ، وكرم ملحم كرم ، ويوسف يزبك فقابلوا فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية الاستاذ اميل ادة وطلبوا اليه التلطف بقبول جعل المهرجان تحت رعاية فخامته . وقد استقبل اللبناني الاول وفد اللجنة بحفاوة وقال : « انه شخصيا يعطف على مشروعها ويقدره حق قدره ، ولكنه يطلب الى الوفد ان يجتمع بمعالي وزير التربية الوطنية ويتفق معه على تقرير الامر ، عملا بنصوص الدستور ... وذهب الوفد الى معالي الاستاذ حبيب ابي شهلا ، فلقي من وزير التربية الوطنية كل عطف وتشجيع، وقال : انه مستعد لتسهيل مهمة اللجنة بكل ما لديه من الوسائل المادية والمعنوية ، وقد تلطف وشكر اللجنة باسم الحكومة اللبنانية على اهتمامها بتكريم نابغة لبناني من نوابغ الامة العربية ، ووعد بقبول رعاية المهرجان.

وقد بسط لمعالي الوزير منهاج اللجنة لتكريم الشدياق ، ومنه اعادة طبع بعض مؤلفاته ، واختيار مختارات منها ، ثم اقامة تمثال له ، وترميم ضريحه في الحازمية ، وجعل مدة المهرجان اسبوعا كاملا يشترك فيه المستشرقون ، ووفود الاقطار العربية وشعراؤها وكتابها . ولم يفسح معالي الوزير المجال لنوفد لكي يطلب معونة الحكومة ، بل اعلن لزائريه حالا انه سيخصص مبلغا من المال تسمح به حالة موازنة المعارف يكون فاتحة الاكتتاب الذي ستجريه اللجنة لتحقيق منهاجها ، ووعد بأن تشترك مدرسة الصنائع والفنون مع احد مهندسي الحكومة لترميم الضريح ، فخرج الوفد من زيارته شاكرا » .

ومضى عبود يقول :

« راحت وزارة ابي شهلا ، وجاءت بعدها وزارة ابي اللمع ، ثم سقطت هذه وجاءت وزارة ثابت ، ولكن الوزارات لم تكن تحل وتربط ، فمشت القضية على قدم وساق الى الاضمحلال ..

وهكذا ارتخت همة لجنة الشدياق ، اذ علم الاعضاء الكرام ، والرئيس الهمام انهم ينفخون في رماد . »

وهنا اعرب المرحوم مارون عبود عن اسفه على ما اعترض يوبيل الشدياق الخمسيني من عقبات ، ولكنه قال : « فلا باس ان تركنا التمثال للذرية فلعلها تكون خيرا منا فلجنة تمثال بودلير نامت زهاء ربع قرن » .

اما وقد مضى 35 عاما على موعد يوبيل الشدياق الخمسيني توفي خلالها الداعي الاول لهذا اليوبيل ، واشرفت على اللحاق به حين ان احدا من الذرية لم يفكر في الاحتفال بذكرى الشدياق فاني احببت ان اذكر العالم العربي بمجلة «اللسان العربي» المحترمة، بالرجل الفذ الذي خدم هذا اللسان خدمات لم يقم فيها احد سواه في عصره ، ولعل الذكرى تنفع المؤمنين .